

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية في

اليمن قبل الإسلام

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية في اليمن قبل الإسلام

مع حلول القرن السادس الميلادي انهارت السلطة المركزية في اليمن، نتيجة تردي أنظمة الري، وبالتالي انتشرت ظاهرة البداوة بشكل كبير. بمعنى أن المجتمع اليمني كونه مجتمعاً زراعياً، أصبحت الزراعة موسمية، وبدأ القوم يترحلون من مكان إلى آخر.

فقد كان لندرة الماء والكأ في المناطق التي ألف القوم الحياة فيها أثر في جعل العيش صعباً، وأصبح المتوطن في البادية معرضاً للموت بسبب ندرة الموارد الطبيعية التي لا يمكن أن تقوم بإشباعه على مدار السنة، لذلك كان عليه اللجوء إلى الترحال المستمر أو الموسمي. وولد شح الطبيعة لمقوماتها تنافساً قُبلياً على الموارد الطبيعية المحدودة^(١).

والقبيلة ليست معزولة عن المجتمع لأنها بحاجة إلى تبادل منتجاتها مع القبائل المجاورة لها، ولذلك توجهت القبائل اليمنية إلى مد جسورها مع العالم الخارجي من خلال العمل التجاري. وأدى ذلك بحكم الترحال التجاري إلى تراكم مادي ومعرفي.

(١) الفضل شلق: القبيلة والدولة أو المجتمع (مجلة الاجتهاد - العدد ١٧ - السنة الرابعة - حريف عام ١٩٩٢/١٤١٣ هـ - دار الاجتهاد، بيروت - ص ١٠).

ودعت الضرورة الاقتصادية إلى تعاون أبناء القبيلة من أجل الإنتاج،
ودرء خطر داهم يهدد الاستقرار.. ولذلك تعرف القبيلة بأنها مجموعة من
العلاقات الاجتماعية^(١).

واليمن لا تختلف عن مثيلاتها كثيراً في شبه الجزيرة العربية.. والقبيلة
في الأصل هي صاحبة النفوذ والقوة، وعلى الأرض اليمنية برزت سبع قبائل
كبيرة وهي: "حمير، همدان، مذحج، خولان، حضرموت، كندة،
مهرة".. إضافة إلى قبائل بلاد السراة العديدة، وقبائل إقليم تهامة.. وتنقسم
كل قبلية إلى بطون وعشائر، وأصبح لكل قبيلة موقع مكاني محدد،
فالقبائل التي تقع بين الطائف ونجران تسمى قبائل بلاد السراة، وكل
قبيلة تمثل كياناً له قيادته القبلية وعلاقاته الخاصة بالكيانات القبلية
المجاورة سلماً وحرماً^(٢).

في بلاد نجران خليط من القبائل من مذحج، وهمدان، أما وادي
نجران فيضم قبيلة بني الحارث بن كعب من مذحج.. أما قبيلة خولان
وهي بطن من كهلان مدينتهم صعدة، وتمتد شمالاً حتى وادي نجران
وتمتد جنوباً حتى تلتقي ببلاد همدان، وسهلها غرباً يدخل ضمن تهامة،
ومن ناحية الشرق فتلاصق بلاد مذحج (سرو مذحج).

(١) يرى مضاوي الرشيد (Politics In An Arabian oasis) بأن القبيلة (تجمع كبير
من الناس الذين يدعون نسباً مشتركاً، مما يمنحها تماسكاً هشاً، فعلاً : الفضل شلق : المرجع السابق،
ص ١٧ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٣٨٧ : نقلاً عن : د / عبد الرحمن الشجاع. تاريخ
اليمن في الإسلام، حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ص ٣٠.

ولقبيلة (خولان) فرعان : الأول (خولان قضاة)، ويسكنون المناطق الشمالية والفرع الثاني (خولان بني عمر)، ويسكنون شرقي صنعاء ... وتلتقي همدان بخولان من ناحية الشمال، أما بلاد همدان فتقع شمال صنعاء، وتلتقي ببلاد خولان من ناحية الشمال، ومن الجنوب تقع مدينة صنعاء، ومن الشرق تلتقي ببلاد خولان العالية والجوف وسرو مذحج، ومن الغرب تهامة.

وتنقسم قبيلة همدان إلى فرعين كبيرين وهما (حاشد) في الشرق، وبكيل في الغرب أما قبيلة (حمير) فتسكن سرو مذحج الواقع بين تهامة غرباً وسرو مذحج شرقاً، وتتلاحم مع حضرموت في الجنوب الشرقي، ومن الشمال تلتقي بهمدان وخولان العالية والأبناء في صنعاء، ومن الجنوب عدن (منطقة الأبناء) والبحر العربي.. وتتفرع قبيلة حمير إلى فروع عدة، وكل زعيم فرع يطلق عليه (ملك) ولذا تعددت الألقاب الملكية فيهم بينما الواحد منهم لا يتعدى سلطانه على أحد الوديان..

وتأتي قبيلة (مذحج) ويسكنون في سرو مذحج، والذي يقع في شرق اليمن الممتد من تثليث شمالاً ويمر شرق نجران وخولان وهمدان، وسرو حمير، ويتداخل مع أطراف حضرموت حتى يستقر جنوباً في دثينة الواقعة بين الجند حاضرة سرو حمير وعدن ميناء الإدارة الفارسية. وأهم القبائل المذحجية التي بقيت في سرو مذحج هي (مراد، عنس، زبيد، مسلية و(أود) و (الرهاء).

وتأتي قبائل تهامة التي تقع في إقليم تهامة الذي يحده تهامة الحجاز شمالاً حتى عدن جنوباً ويصل طوله إلى ٩١٥ كم، ويحده من الشرق نجد

اليمن الذي تقطنه قبائل الأزد وخولان وهمدان وحمير ومن الغرب يحده البحر الأحمر^(١).

أما إقليم حضرموت، فكان امتداده من عمان والبحر العربي شرقاً إلى عدن، وسرو مذحج، وسرو حمير غرباً، ومن البحر العربي جنوباً إلى الربع الخالي شمالاً، وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

- قسم تنزل فيه قبيلة المهرة وهو الساحل الجنوبي الشرقي المحاذي لعمان والشحر.. وقسم يخص قبيلة حضرموت وهو وادي حضرموت.. وعاصمتهم شبام حضرموت. وتلتقي بلادهم مع حمير، ومذحج من ناحية غرب إقليم حضرموت.. وتسكن قبيلة كندة في أعلى إقليم حضرموت وتتمركز في وادي دوعن، ووادي عين، وفيها حصن النجد ومدينة تريم. وتنقسم قبيلة كندة عشائرياً إلى قسمين هما: بني الأشرس وبني معاوية^(٢).

لقد كان اليمنيون متميزين عن جيرانهم في طرق استخدام المياه في الزراعة فأقاموا السدود لذلك، وأهم هذه السدود (سد مأرب).. وأدى الازدهار الزراعي في اليمن إلى الاستقرار المكاني فتميزت معالم حدود كل قبيلة، وترتب على ذلك تعاقد قبلي، من ثم نشاط اليمنيون في الحركة التجارية مع مصر، وبلاد الشام والعراق فتدفقت الثروة على اليمن.. وكون التجار منهم اسطولاً تجارياً تشحن سفنه بالبخور لإمداد معايد بلاد الشرق. كما كان لدولة سبأ قوافل تجارية تجوب الصحراء

(١) د. عبد الرحمن الشجاع : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٢) نفس المرجع : ص ٣٧.

وتخترقها إلى الشام وفلسطين،^(١) لنقل السلع التجارية اليمنية وتستورد منها السلع التي تتطلبها بلادها.

وتوقفت هذه الحركة الاقتصادية بسبب تصدع سد مأرب.. وبانهيار السد، فاضت المياه على ما حوله من قرى ومزارع فأتلفتها، وتدهورت الزراعة مما اضطر المستفيدين منها إلى الهجرة خارج البلاد. وكانت دولة سبأ مركزاً وسطاً بين دول الحضارات القديمة في الهند وفي مصر وفي وادي دجلة والفرات وفي الشام.. وفي بلاد اليونان والرومان. وبحكم موقعها الجغرافي فقد كانت تشرف على طرق التجارة العالمية سواء منها الطرق البحرية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسي والمحيط الهندي أو طرق القوافل الممتدة عبر الصحارى العربية "وكانت سبأ تنتج البخور الذي كان من أهم السلع العالمية، في إحياء الطقوس الدينية القديمة"^(٢).

وعلى مدى الألف الأول قبل الميلاد أخذ نفوذ اليهود (التجاري) في الازدياد.. وهى الرومان لليهود فرصة الانفراد بالسيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط حين تمكنوا من القضاء على الفينقيين والبطالمة، وقد حاولوا - عبثاً - القضاء على السبئيين بغزوهم عام ٢٤ ق م^(٣).

(١) د / عصام الدين عبد الرؤوف الفقي : اليمن في ظل الإسلام القاهرة، دار الفكر العربي ط١، ١٩٨٢، ص٩.

(٢) د.حسن الباشا. المشكلة اليهودية من عهد سبأ إلى صدر الإسلام (المجلة العدد التاسع) سبتمبر ١٩٥٧م ص ٨٨.

(٣) نفس المرجع ص ٨٨.

وقد أثار الرومان استفحال نفوذ اليهود . فأعدوا عدتهم نحو التخلص منهم.. ومع مطلع القرن الأول الميلادي استطاع الرومان القضاء على مراكز اليهود التجارية. وفي عام ٧٠م استطاعت القوات الرومانية القضاء على دولة اليهود في فلسطين وأزالوا معابدهم في القدس وفرضوا عليهم الجلاء عن الأرض. وتفرقوا في مناطق الجوار ومنها الجزيرة العربية وجنوبها وحاولوا أن يؤسسوا دولاً على حساب غيرهم من الشعوب. ومن هذه المحاولات عملوا على تأسيس دولة لهم في بلاد اليمن. ولم يقاوم العرب استيطان اليهود في بلادهم بل على العكس من ذلك رحبوا بهم. وأشركوهم في تجاراتهم.. وأخذ اليهود يعملون على توطيد نفوذهم والسيطرة على الطرق البرية ، فكانت لهم السيادة في يثرب وغيرها من المناطق الأخرى ، كما أصبحت لهم جاليات في مكة ونجران وفي اليمن^(١). وكونت قبائل حمير دولة على أنقاض دولة سبأ ، وكانت موضع تنافس بين دولة الفرس " الساسانيين " ودولة الروم " البيزنطيين " واستخدمت دولة الروم سلاح العقيدة الدينية المسيحية في فرض نفوذها وتوسعها ، ونجحت في نشر الديانة المسيحية في الحبشة وفي بلاد اليمن ، وأصبح لها في منطقة نجران تنظيم عقائدي صارم وضم جماعة غير يمينيين وكان الغرض من نشر المسيحية من أجل أن يكون لبلاد الروم نفوذ سياسي واقتصادي فيها. وأوجد لهم مناخ تجاري تسير قوافله بين الخليج العربي والبحر الأحمر مارة ببلاد اليمن. الأمر الذي حمل التجار العرب للتصدي لقوافل الروم التجارية^(٢).

(١) نفس المرجع ص ٨٩.

(٢) نقلاً عن د عصام الفقي Hitti : History of the Arobs p. 61 .

ونتيجة التنافس التجاري عمل اليهود على نشر ديانتهم ونجحوا في تهويد زعماء حمير وملوكهم وانتشرت اليهودية بين قبائل حمير وغيرها من القبائل.. وعرف عنهم التعصب لعقيدتهم الجديدة. ولما زاد نفوذهم في اليمن أظهروا رغبتهم في الانتقام من المسيحيين الروم العابرين بتجارتهن الهندية في طريقهم إلى الحبشة ومصر.. وكان الفرس يقومون بتعصيد اليهود في موقفهم العدائي من المسيحيين اليمنيين وأشياعهم من البيزنطيين الذين استوطنوا الإقليم الجنوبي على جانبي البحر الأحمر مما يشكل خطراً على فارس من ناحية الجنوب، وكان المسيحيون اليمنيون يعتمدون على مساعدة الروم لهم ضد أعدائهم اليهود^(١).

وتشير بعض الدراسات^(٢) إلى أنه مع بداية القرن الرابع الميلادي ظهرت عوامل جديدة دفعت اليهود إلى تغيير موقفهم من الجالية المسيحية في اليمن، بسبب رعاية إمبراطور بيزنطة للديانة المسيحية.

واشتد الصراع بين المسيحية واليهودية في اليمن.. وفي عهد ملك حمير (ديمانوس) تعرضت القوافل التجارية المسيحية البيزنطية الذين كانوا يمرون بطريقهم من اليمن إلى الحبشة والعكس إلى المنع من السير والمصادرة لبضاعاتهم.. فتحالف الروم (البيزنطيون) والأحباش، على الخلاص من الملك الحميري، وأمروا بدلاً منه أميراً مسيحياً.. ولما توفى أقام اليهود (ذونواس الحميري) ملكاً على اليمن.. وقد اشتد ذو نواس الحميري على المسيحيين واضطهدهم، وذهب إلى نجران ودخلها عنوة وسام أهلها

(١) نقلاً عن د / عصام الفقي 62، P > IBID.-

(٢) د / حسن الباشا : المرجع السابق، ص ٨٩ والملاحظ أن قسطنطين الأول عام ٣٠٦-٣٣٧م وكذلك ثيوديسيوس (سنة ٣٧٩-٣٩٥هـ) جعل الديانة المسيحية الدين الرسمي للدولة.

سوء العذاب، وألحق بهم الأذى، لرفضهم القبول بالديانة اليهودية، وحضر لهم أخدوداً، وأشعل فيه النيران وأحرق عدة آلاف من أبناء نجران^(١) وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)^(٢). ولما علم إمبراطور روما، ما حل بنصارى نجران، بعث إلى نجاشي الحبشة، يحرضه على غزو بلاد اليمن، وإنقاذ المسيحيين المضطهدين فيها، والتخلص من ذي نواس الحميري، وحماية المسيحية في بلاد اليمن.

وقام نجاشي الحبشة بغزو اليمن في عام ٥٢٣م، للدفاع عن النصارى والقضاء على الملك اليهودي المغتصب، وهزم (ذو نواس) وتم القضاء على دولته اليهودية في مهدها (وكانت محاولات ذو نواس، الإجرامية قد باءت بالفشل إلا أنها أدت إلى القضاء على استقلال (دولة حمير) و إلى انهيار الحضارة اليمنية وإلى خمود النهضة العربية التي كانت منبعثة من هذا الجزء من بلاد العرب)^(٣). واستطاع القائد العسكري الحبشي إرياط من الوصول إلى عاصمة الدولة الحميرية (ظفار) وقبض على زمام الأمور في اليمن. وتولى إرياط الحكم كوال للحبشة وبذلك خضعت اليمن للحكم

(١) Philiby : the Bockgriund of Islam. p. 119 - نقلاً عن : دكتور/ عصام

الفقي، مرجع سابق ص ١١.

(٢) سورة البروج أية ٤-٨ والمعلوم أن "ذو نواس" أو يوسف استطاع أن يغتصب العرش في عام

٥٢٣ م وشرع في تضيق الخناق على المسيحية، التي أخذت في الانتشار على حساب اليهودية

والوثنية وتحالف مع الفرس في الخلاص من المسيحية، (حسن الباشا : مرجع سابق ص ٩٠).

(٣) د / حسن باشا : المرجع السابق ص ٩١.

الحبشي. وكان تعداد جيش الحبشة (٧٠,٠٠٠ مقاتل) حسب رواية مؤرخي العرب^(١) ونجح إبرهه في عملية انقلاب أطاح بالحاكم الحبشي (أرياط) في عام ٥٢٥م واستطاع أبرهة الحبشي أن يحكم بيد من حديد، ومن أهم أعماله إصلاحه لسد مأرب، وبناءه كنيسة عظيمة في صنعاء وسميت (القليس) وبالغ في زخرفتها ووضع فيها التماثيل وأراد أن يجعل منها مزاراً ليحج إليها العرب بدلاً عن الكعبة، وبالتالي تصبح صنعاء سوقاً تجارية ويساعد ذلك على نشر المسيحية بين القبائل العربية كلها.

لكن العرب استأثروا من مشروع أبرهه، في كنيسته، فعملوا على تدنيسها بالقاذورات..فاتخذ من ذلك ذريعة لغزو مكة وتدمير الكعبة. إلا أن حملته المشهورة في عام ٥٤٠م فشلت لأن رب الكعبة حماها من عنده فأنزل الله على جيش أبرهة حجارة من سجيل، كما تنص الآية الكريمة في سورة الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.. الخ)^(٢) ويرى الذين يميلون إلى تضيق نطاق الخوارق والغيبات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير)^(٣).

(١) د / أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها، صنعاء المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ط٢ ١٩٨٨م ص١٧.

(٢) سورة الفيل : آية ١-٥ (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن، بيروت و دار إحياء التراث العربي ط٧ ١٩٧١ ج ٣ ص ٦٦٧ .

وجاء في تفسير السورة في جزء عم، للشيخ محمد عبده (وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة.. قال عكرمة : هو أول جدري ظهر ببلاد العرب. وقال يعقوب فيما حدث إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في بلاد العرب ذلك العام. وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله. كان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين، وأصيب الجيش)^(١).

وعاد أبرهة إلى اليمن يجر أذيال الهزيمة والخيبة، وتوفي بعد وصوله إثر إصابته بمرض خطير.. وفي عام ٥٤٤م انتهى حكم أبرهة وخلفه ابنه يكسوم الذي حكم مدة ١٩ عاماً، ثم خلفه أخوه مسروق وحكم ١٢ عاماً وفي عهده ظهرت معارضة يمنية تجاه الأحباش مستعينين بالقوى الوثنية واليهودية من القبائل اليمنية، وتطلعت هذه الجبهة إلى الدعم الفارسي لتحريرهم من الأحباش.

ومن الأسباب التي عجلت الثورة ضد المستعمر الحبشي، هو أن الأمير مسروق بن إبرهة كان عهده مليئاً بالفوضى، وضج أهل اليمن مما لحق بهم من اعتداءات على أعراضهم وأموالهم.. وعجزت الثورات المتعددة من طرد الأحباش، وليس أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى فارس. وكما هو معلوم أن الحركات الثورية ضد الأحباش لم تكن شعبية بمعنى أنها (لم تكن ثورة عارمة مادتها كل الجماهير والسادات بل كانت ثورات سادات)^(٢).

(١) نفس المرجع : ص ٦٦٧.

(٢) د/جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٣، بيروت دار العلم للملايين، ط١
١٩٦٩م ص ٥٢١.

وكان صاحب الرأي باللجوء إلى فارس، هو سيف بن ذي يزن من أبناء الأذواء، ومن أسرة شهيرة.. وتوجه مع وفد إلى الحيرة، واستقبله ملك الحيرة (النعمان بن المنذر) ثم ذهب به إلى كسرى، وحدثه في شأنه وقومه، فأمدّه (بثمانمئة محارب، وبـ (وهرز) أمره عليهم وبثمانى سفن جعل في كل سفينة مائة رجل وما يصلحهم في البحر، فخرجوا حتى إذا لجّوا في البحر غرقت من السفن سفينتان بما فيهما) ^(١) وأرست السفن الست الباقية بساحل عدن تحمل عليها ستمائة رجل فيهم القائد العسكري الفارسي (وهرز) وسيف بن ذي يزن، فلما سمع بهم الأمير مسروق بن أبرهة جمع إليه جنده من الحبشة وتوجه إليهم، فلما التقوا رمى (وهرز) مسروق بسهم، أرداه قتيلاً، فانسحب جيش مسروق مذعوراً، ودخل وهرز مدينة صنعاء، وجعل من نفسه ملكاً على اليمن، وطرد عنها الأحباش، وكتب بذلك إلى كسرى فأمره كسرى أن يمكن سيف بن ذي يزن من السلطة على اليمن وأرضها، وأن يعود وهرز إلى بلاده، فرجع إليها وفرض على سيف جزية وخراج يؤديه في كل عام ^(٢).

إلا أن ملك اليمن الجديد سيف بن ذي يزن عمل على إذلال ما تبقى من الأحباش وأباد الكثير منهم، واتخذ منهم خدماً يسعون بين يديه بحراهم، حتى إذا كان في وسطهم هجموا عليه بالحرايب وقتلوه، وتأمّر رجل منهم على اليمن وعاث في الأرض فساداً ولما بلغ بذلك كسرى بعث إليهم (وهرز) في أربعة آلاف من الفرس وأمره أن لا يترك باليمن أسود ولا

(١) نفس المرجع السابق ص ٥٢٣.

(٢) الطبري (١٣٦/٢) دار المعارف، كذلك، ابن خلدون (٦٣/٢) نقلاً عن: - د جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق ص ٥٢٣.

ولد عربية من أسود إلا قتله، صغيراً كان أو كبيراً.. فنفذ وهرز أوامر
كسرى فارس، وملكه كسرى على اليمن^(١). وانتهى حكم الأحباش
عام ٥٧٥م^(٢).

(١) نقلاً عن د / جواد علي ص ٥٢٤ .

.W.Phillips,P.223

(٢) نقلاً عن : د. جواد علي ص ٥٢٤